مملكة الحيرة فى أيامها الاخيرة

بقلم الدكتور يوسف بك غنيمة
وزير مالية العراق الأسبق

تمهيد ـ حكم اياس بن قبيصة الطائى ـ يوم ذى قار ـ ازاذبة ـ المنذر الخامس المغرور ابن النعمان أبو قابوس ـ الفتح الاسلامى ـ بقايا اللخميين وحكمهم فى الاسلام .

١ : تمهيد

عالجت فى مقال سبق نشره فى مجلة « المعرفة » الغراء [١] تاريخ خمسة ملوك من اللخميين حكموا الحيرة ، وهم : عمرو بن عدى رأس السلالة اللخمية (٢٦٨ — ٢٨٨ م) ، وامرؤ القيس البدء بن عمرو بن عدى (٢٨٨—٣٢٨م) ، وعمرو الثانى بن امرىء القيس (٣٢٨ — ٣٧٧م) ، وأوس بن قلام الدخيل (٣٧٧ — ٣٨٢م) ، وامرؤ القيس الثانى بن عمرو الثانى (٣٨٢—٤٠٣م) . وبعد هؤلاء الملوك ساد المملكة خلفاؤهم ، وهم : النعمان الأول بن امرىء القيس الثانى المعروف بالنعمان الأكبر ، والسائح ، والأعور ، وابن الشقيقة (٤٠٣ — ٤٣١م) ؛ ثم المنذر الأول بن النعمان الأول (٤٣١ — ٤٧٣م) ؛ وعقبة الأسود بن المنذر الأول (٤٧٣ — ٤٩٣م) ، فالمنذر الثانى بن المنذر الأول (٤٩٣ — ٥٠٠م) ، ثم النعمان الثانى بن الأسود بن المنذر (٥٠٠ — ٥٠٤م) ، فأبو يعفر علقمة الدخيل (٥٠٤ — ٥٠٧م) ، فامرؤ القيس الثالث بن النعمان الثانى (٥٠٧ — ٥١٤ م) [٢] .

وحكم الحيرة بعد ذلك المنذر الثالث بن امرؤ القيس الثالث المعروف بالمنذر بن ماء السماء (٥١٤ — ٥٦٣) ، وتخلل حكمه استيلاء الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار [٣] .

وتوالى على الحيرة اولاد المنذر بن ماء السماء الثلاثة ، وهم : عمرو الثالث المعروف بعمر ابن هند ، ومضرط الحجارة (٥٦٣ — ٥٧٨م) ، وقابوس المعروف بفتنة العروس (٥٧٨ — ٥٨١م) ، واندس هنا دخيل ، وهو فيشهرت أو زيد (٥٨١—٥٨٢م) ، ثم جاء آخر أولاد المنذر

---

(١) فى عددى : أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٣٢ من « المعرفة » الغراء (٢) نشرت تاريخ ملوك الحيرة من النعمان الأكبر حتى امرىء القيس الثالث (٤٠٣—٥١٤م) فى مجلة « المشرق » القاهرة ديسمبر سنة ١٩٣٢ وما بعده (٣) ونشرت تاريخ المنذر بن ماء السماء فى مجلة « المقتطف » الغراء ديسمبر سنة ١٩٣٢ .

الثالث ، وهو المنذر الرابع الملقب الأسود الثانى (٥٨٢ — ٥٨٥م) [١] .

وعقبه النعمان الثالث أبو قابوس قتيل كسرى أبرويز (٥٨٥ — ٦٠٧م)[٢] ، وبعد قتله هرب أولاده من الحيرة، وولى كسرى على حكمها الولاة من العرب والفرس ، حتى كان الفتح الاسلامى ، فدالت دولة الحيرة ، وتبددت بنايا الخمين فى الأقطار ، وكان منهم حكام فى الاسلام كما سنرى .

فوددت أن أنشر القسم الأخير من تاريخ المناذرة فى مجلة « المعرفة » الغراء ، كما نشرت بدء تاريخهم فيها ، وألمعت فى هذا التمهيد إلى سنى حكم كل من الملوك الذين سادوا هذه المملكة العربية الشهيرة فى الجاهلية .

٢ : إياس بن قبيصة الطائى

٦٠٧ — ٦١٧ م [٣]

بعد قتل النعمان بن المنذر هرب أولاده من الحيرة وظعنوا إلى بلاد أخرى حذراً من بطش كسرى أبرويز ؛ فولى كسرى على الحيرة إياس بن قبيصة الطائى ؛ ولم تكن هذه ولايته الأولى عليها ، بل رأيناه وقد عهدت إليه قبل ذلك فى فترة من ملوكها المناذرة بين موت المنذر وحكم ابنه النعمان أبى قابوس[٤] ؛ وإياس هذا ، هو ابن قبيصة بن أبى عفراء بن النعمان بن حية بن سعبة بن الحارث بن الحويرث بن ربيعة بن مالك بن سفر بن هنء بن عمرو بن الغوث بن طيء ، وهو ابن أخى حنظلة بن أبى عفراء الذى بسببه تنصر المنذر صاحب الغريين [٥] .

وكان إياس من أشراف طيء وفصحائها المشهورين ، وله منزلة عظيمة عند كسرى أبرويز لما سبق له من الخدمات الجليلة والبلاء الحسن فى الدفاع عنه : أولها فى موقعة بهرام جوبين ، إذ أهدى كسرى فرساً وجزوراً لما مر عليه[٦] ؛ وذكر سايكس [٧] أن كسرى أبرويز هرب ؛ وكان

---

(١) نشرت هذا القسم من تاريخ المناذرة فى مجلة « الإخاء » المصرية الوضاء : ديسمبر سنة ١٩٣٢ (٢) نشرت تاريخه فى مجلة « المجمع العلمى العربى » الزاهرة (٣) جعل برسفال حكم إياس من ٦٠٥ — ٦١٤ ، وتابعه فى ذلك بعض المعاصرين ؛ وجعله غيرهم من ٦١٣ — ٦١٨ ؛ وقال حمزة الأصفهانى : لسنة وستة أشهر من ملك إياس بعث النبى — صلى الله عليه وسلم — وذلك لست عشرة سنة مضت من ملك أبرويز ؛ ومحمد بن حبيب يقول : مضت لعشرين سنة من ملكه ، فاخترنا نحن هذا التاريخ الوسط وظننه صحيحاً أو أقرب إلى الصحة (٤) الأغانى ٢ : ٢١ (٥) شعراء النصرانية ١٣٥ ، (٦) الطبرى ٢ : ١٥٢ ، وجاء فى الشاهنامة ٢ : ٢٠٥ من الترجمة العربية : قيس بن حارث بدلا من إياس بن قبيصة .

دليله رئيساً عربياً اسمه إياس حتى بلغ قرقيسيا فالتجأ إلى الروم ؛ وذكر ابن الأثير [١] أن إياساً أهدى هدية إلى كسرى لما اجتاز به سائراً إلى ملك الروم ؛ وذكر ياقوت [٢] أن الروم تجاوزوا تخوم بلاد فارس فى حرب بين هاتين الدولتين ، فبعث كسرى إياساً لقتالهم بـ «ساتيدماه» ـ وهو جيل بين ميافارقين وسعرت بديار بكر (آمد) ـ ؛ فأدركهم إياس بمكان يعرف بدرب الكلاب ، سمى بذلك لأن قيصر انهزم من جيش كسرى بحيلة عملها عليه ، فاتبعه إياس فأدركهم بساتيدما مرعويين مغلولين من غير قتال ، فقتلوا قتل الكلاب ، ونجا قيصر فى خواص من أصحابه ، فعاد كسرى ظافراً وقدم كسرى إياساً ؛ وكانت هذه الحرب بعد موت الامبراطور موريقا بين سنة ٦٠٣ و٦٠٧ [٣] ؛ ومكافأة لهذه الأعمال أقام كسرى أبروز إياساً عامله على عين التمر وما والاها إلى الحيرة وأطعمه ثلاثين قرية على شاطىء الفرات [٤] ، ولم تكن منزلة إياس عند كسرى فقط كبيرة بل فى مملكة المناذرة أيضاً ، وكانت له الكلمة الراجحة فى قصرهم وانتصر لحاتم الطائى عند النعمان بن المنذر [٥] .

ومع ثقة كسرى أبروز بإياس فإنه لم يوله وحده على الحيرة بعد قتل النعمان بن المنذر ، بل جعل إلى جانبه رجلا فارسياً سماه المؤرخون الهرمجان [٦] أو البحرجان [٧] أو النخرجان [٨] ، ومهما كان الأمر فقد ارتكب الفرس شططاً بتقويض ولاية اللخميين على الحيرة بعد النعمان [٩] .

٣ : يوم ذى قار

أمر كسرى إياساً أن يضم ما كان للنعمان أبى قابوس ويبعثه إليه ، فبعث إياس إلى هانىء أن أرسل إلى ما استودعك النعمان من الدروع وغيرها ، فأبى هانىء أن يسلم خفارته ؛ قال : فلما منعها هانىء غضب كسرى وأظهر أنه يستأصل بكر بن وائل وعنده يومئذ النعمان بن زرعة التغلبى ـ وهو يحب هلاك بكر بن وائل ـ فقال لكسرى : ياخير الملوك ! أدلك على غرة بكر ، قال : نعم قال : أمهلها حتى تقيظ فإنهم لو قاظوا تساقطوا كالفراش فى النار فأخذتهم كيف شئت وأنا أكفيكهم . فأقرهم حتى إذا قاظوا جاءت بكر بن وائل فترات الحنو ـ حنو ذى قار ـ وهى من ذى قار بليلة ، فأرسل إليهم كسرى النعمان بن زرعة أن اختاروا واحدة من ثلاث خصال :

---

(١) الكامل ١ : ١٩٩ (٢) معجم البلدان : المادتان «ساتيدماه و « درب الكلاب ». راجع أيضاً شعراء النصرانية ١٣٥ (٣) سايكس : تاريخ فارس ١ : ٥٢١ (٤) الأغانى ٢٠ : ١٣٤ (٥) الأغانى ١٦ : ٩٦ (٦) شعراء النصرانية : ١٣٧ (٧) حمزة الأصفهانى : ٧٤ (٨) ابن الأثير ١ : ٢٠٠ (٩) الأب لامنس : المعلمة الاسلامية .

إما ان تعطوا بأيديكم فيحكم الملك بما شاء، وإما أن تمروا الديار،وإما أن تأذنوا بحرب، فآذنوا الملك بالحرب؛ فأرسل كسرى إياس بن قبيصة الطائى أمير الجيش ومعه سراذبة الفرس، والهامرز النسوى، وغيره من العرب: تغلب،وإياد، وقيس بن مسعود بن قيس بن ذى الجدين وأرسل الفيول. فقسم هانىء بن مسعود دروع النعمان وسلاحه، فلما دنت الفرس من بنى شيبان قال هانىء بن مسعود:يامعشر بكر لا طاقة لكم فى قتال كسرى فاركبوا إلى الفلاة، فسارع الناس إلى ذلك،فوثب حنظلة بن ثعلبة العجلى،وقال:ياهانىء أردت نجاءنا فألقيتنا فى الهلكة، فرد الناس وقطع وضن الهوادج، وضرب على نفسه قبة وأقسم ألا يفر حتى تفر القبة، فرجع الناس واستقوا ماء لنصف شهر،فأتتهم العجم فقاتلتهم بالجنود فانهزمت العجم خوف العطش إلى الجبابات، فتبعتهم بكر وعجل، وأبلت يومئذ بلاء حسناً. فاصطفت عليهم جنود العجم فقال الناس:هلكت عجل، ثم حملت بكر فوجدت عجلا تحارب فقاتلوهم ذلك اليوم،ومالت العجم إلى بطحاء ذى قار هرباً من العطش، فأرسلت إياد إلى بكر وكانوا مع الفرس، وقالوا لهم: إن شئتم هربنا الليلة، وإن شئتم أقمنا ونفر حين تلاقون الناس،فقالوا: بل تقيمون وتنهزمون إذا التقينا، وقال زيد بن حسان الكوفى ـ وكان حليفاً لبنى شيبان ـ:أطيعونى واكمنوا لهم ففعلوا ثم تقاتلوا، وحرض بعضهم بعضاً فقطع سبعمائة من بنى شيبان أيدى أقبيتهم من منا كبهم لتخف أيديهم لضرب السيوف فجالدوهم وبارز الهامرز، فبرز إليه برد من حارثة اليشكرى فقتله برد ثم حملت ميسرة بكر وميمنتها، وخرج الكمين فشدوا على قلب الجيش وفيهم إياس بن قبيصة الطائى، وولت إياد منهزمة كما وعدتهم فانهزمت الفرس واتبعتهم بكر تقتل ولا تلتفت إلى سلب وغنيمة، وأسر النعمان بن زرعة التغلبى ونجا إياس ابن قبيصة على فرسه فكان أول من انصرف إلى كسرى بالهزيمة.

وكان كسرى لا يأتيه أحد بهزيمة جيش إلا نزع كتفه، فلما أتاه ابن قبيصة سأله عن الجيش فقال: هزمنا بكر بن وائل وأتيناك ببنسانهم فعجب بذلك كسرى، وأمر له بكسوة، ثم استأذنه إياس فقال: إن أخى قيساً مريض بعين التمر أريد زيارته فأذن له، ثم أتى كسرى رجل من أهل الحيرة ـ وهو بالخورنق ـ فسأل:هل دخل أحد؟ فقالوا إياس،فظن أنه حدثه الخبر فدخل عليه وأخبره بهزيمة القوم وقتلهم فأمر به ونزعت كتفاه.

عرف العرب هذه الموقعة بـ « يوم ذى قار »، وكان لانتصار العرب على العجم فى هذا اليوم رنة سرور ومجلبة مفخرة وحبور عند العرب فى أقطار المسكونة، وخلد ذكره عند القوم على توالى القرون، وتعاقب الأجيال، فنقل عن النبى (صلعم) انه قال لما بلغه خبر

هذا الانتصار: «هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبى انتصروا[1]»، ومما لاريب فيه أن اندحار الفرس فى هذه المعركة سهل سبل الفتح على المجاهدين فى الاسلام [2].

وذكر أبو الريحان البيرونى [3] أن العذارى النصرانيات من العرب ضمن شكراً لله حيث انتصرت العرب من العجم يوم ذى قار فنصروا عليهم، وقال: إن صوم العذارى نشأ من هناك، وهو يقع يوم الاثنين بعد عيد الدنح ويدوم ثلاثة أيام [4].

وأكثر الشعراء من التغنى بهذا الانتصار القومى بقصائدهم الرنانة وأشعارهم، كما أنهم سلقوا - بألسنة حداد - إياس بن قبيصة لاتفاقه والفرس على بنى قومه.

ومن ذلك قول أبى تمام يمدح أبا دلف العجلى [5]:

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها ... وزادت على ما وطّدت من مناقب
فأنتم بذى قار أمالت سيوفكم ... عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

ومن قوله يمدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى [6]:

أولاك بنو الأحساب لولا فعالهم ... دَرَجْنَ فلم يوجد لمكرمة عقب
لهم يوم ذى قار مضى وهو مفرد ... وحيد من الأشباه ليس له صحب
به علمت صُهْبُ الأعاجم أنه ... به أعربت عن ذات أنفسها العُرب
هو المشهد الفرد[7] الذى ما نجا به ... لكسرى بن كسرى لا سنام ولا صلب

وقال جرير يذكر ذا قار [8]:

فلما التقى الحيّان ألقيت العصا ... ومات الهوى لما أصيبت مقاتله
أبيتُ بذى قارَ أقول لصحبتى ... لعل لهذا الليل تحباً نطاوله
فهيهات هيهات العقيق ومن به ... وهيهات خلٌّ بالعقيق نواصله
عشيةَ بعنا الحِلمَ بالجهل وانتحت ... بنا أريحياتُ الصبا ومجاهله

(١) راجع عن يوم ذى قار: الطبرى ٢: ١٥٢، والكامل لابن الأثير ١: ١٩٦، والعقد الفريد ٣: ٣٧٤، والأغانى ٢٠: ١٣٤، وأبا الفداء ١: ٧٢، والعمدة لابن رشيق ٢: ١٦٩، ومعجم البلدان مادة «قار»، وغير ذلك (٢) سايكس: تاريخ فارس ١: ٥٢١ (٣) الآثار الباقية: ٣١٤ (٤) نسب ياقوت فى معجمه فى المادة «دير العذارى» منشأ هذا الصوم إلى غير ذلك. (٥) ديوان طبعة محمد جمال ص ٤٢ (٦) ديوان أبى تمام الطائى ص ٣١-٣٢ (٧) ويروى هو المشهد الفصل (٨) معجم البلدان: المادة «قار».

[البقية على الصفحة رقم ٩٢١]